ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

المحيط الاجتماعي المادي وإعادة إنتاج الممارسات اليومية

مقاربة سوسيو-أنثروبولوجية

The Socio-Material Environment and the Reproduction of Everyday Practices:

A Socio-Anthropological

علوي سامية

جامعة الجلفة samia.alaoui@univ-djelfa.dz

تاريخ الإستلام: 2026/06/14 تاريخ القبول: 2026/07/25

ملخص:

يتناول هذا المقال المحيطَ الاجتماعي المادي باعتباره بنيةً دلاليةً حاملةً لرموز ومعانٍ اجتماعية كامنة، تُمارس من خلالها آلياتُ التنميط والضبط وإعادة إنتاج الفعل اليومي داخل الفضاء الاجتماعي. فالمكان، من منظور سوسيولوجي، لا يُختزل في بعده الفيزيقي، بل كنسق رمزي مشحون بالتمثلات الاجتماعية وعلاقات القوة والتراتبية، بما يجعله فاعلًا ضمن سيرورات إنتاج المعنى وإعادة إنتاج النظام الاجتماعي. ويندرج هذا التحليل ضمن مقاربة سوسيو-أنثروبولوجية تستلهم تصورات حول إنتاج الفضاء، وقراءة للفضاءات المعيشة، وتحليلات لآليات السلطة المضمرة داخل التنظيمات المكانية.

الكلمات المفتاحية: المحيط الاجتماعي المادي — الممارسات اليومية — إعادة الإنتاج الاجتماعي — الفضاء — السلطة — اللامكان — الهابيتوس.

***

Abstract:

This article examines the material social environment as a semantic structure carrying latent social symbols and meanings, through which mechanisms of normalization, control, and the reproduction of everyday action operate within social space. Place, from a sociological perspective, cannot be reduced to its physical dimension alone; rather, it is approached as a symbolic system charged with social representations, power relations, and hierarchies, which renders it an active agent within processes of meaning production and the reproduction of the social order. This analysis falls within a socio-anthropological approach drawing on conceptualizations of space production, readings of lived spaces, and analyses of the hidden mechanisms of power embedded within spatial organizations.

Keywords: *material social environment — everyday practices — social reproduction — space — power — non-place — habitus*

مقدمة

يُعدّ الفضاء الحضري من أكثر الموضوعات إثارةً لنقاش في سوسيولوجيا المدينة المعاصرة، لا لكونه مجرد وعاء مادي تجري فيه الحياة الاجتماعية، بل لأنه يُشكّل في ذاته نظاماً من العلاقات والقوى التي تُنظّم الوجود اليومي للأفراد والجماعات وتُعيد إنتاجه. ففي أحياء العواصم ، كما في سائر الفضاءات الحضرية ، يمارس الساكن حياته اليومية وفق إيقاعات متكررة ومسارات ثابتة، قد تبدو في ظاهرها نتاجاً لإرادة فردية حرة، غير أنها تنطوي في عمقها على منطق بنيوي صارم يُحكم قبضته على الجسد والحركة والإدراك. وهذا التناقض الجوهري بين ممارسة الحرية اليومية وحقيقة الضبط المكاني هو ما يُشكّل الإشكالية المحورية لهذا المقال، والتي يمكن صياغتها على النحو الآتي: كيف يُؤطّر الفضاء الاجتماعي المادي منظومة الممارسات اليومية للأفراد والجماعات، ويعمل على إعادة إنتاجها بصورة ممنهجة عبر آليات السلطة والهيمنة والتمثّل؟

لا يُطرح هذا السؤال في فراغ نظري، بل يستند إلى تراث فكري سوسيولوجي وجغرافي ثري ومتشعّب. فمن منظور هنري لوفيفر، يغدو الفضاء الاجتماعي منتَجاً اجتماعياً بامتياز، أي أنه ليس معطىً طبيعياً محايداً، بل حصيلة علاقات إنتاج وصراع وهيمنة متراكمة تاريخياً. وفي الاتجاه ذاته، يُرسّخ ديفيد هارفي هذه المقاربة حين يضع الفضاء في صميم الديناميات الرأسمالية، كاشفاً عن الكيفية التي يُوظَّف بها في خدمة منطق التراكم وإعادة إنتاج التفاوتات الاجتماعية. أما ميشيل فوكو، فيكشف من زاوية مغايرة عن السلطة المُقيمة في بنية الفضاء ذاتها، حيث تتحوّل الترتيبات المعمارية والمجالية إلى أدوات رقابة وانضباط تعمل بصمت ودون إكراه مباشر. ويُضيف مارك أوجيه إلى هذه المقاربات بُعداً أنثروبولوجياً حين يُفكّك ثنائية المكان واللامكان في سياق الحداثة الفائقة، مُسلّطاً الضوء على أزمة الهوية والانتماء التي تُولّدها الفضاءات المعاصرة. ولاستيعاب الجانب الذاتي في هذه الحالة، يُستدعى مفهوما الهابيتوس عند بيير بورديو والتكتيك عند ميشيل دو سيرتو، بوصفهما أدواتَين تحليليتَين تُجليان آليات التفاعل بين البنية الموضوعية للفضاء والذاتية الإنسانية.

وتنطلق هذه الدراسة من فرضية مفادها أن الممارسة اليومية ليست في جوهرها سلوكاً عفوياً أو تعبيراً عن إرادة فردية مستقلة، بل هي نتاج تفاعل معقّد ومتشابك بين البنية الموضوعية للفضاء المادي من جهة، ومنظومة الميولات والاستعدادات المتجسّدة تاريخياً في الفاعل الاجتماعي من جهة أخرى. وللإحاطة بهذه الإشكالية من مختلف جوانبها، ينتظم المقال وفق أربعة محاور متكاملة: يتناول المحور الأول الفضاء بوصفه بنية اجتماعية انطلاقاً من مساهمات لوفيفر هارفي، فيما يُعالج المحور الثاني إشكالية السلطة في الفضاء من منظور فوكو. أما المحور الثالث فيُخصَّص لمفهوم اللامكان وما يُفرزه من أزمة في الممارسة اليومية وفق تصور أوجيه، قبل أن يختتم المقال بمحور تركيبي نقدي يُحاول الكشف عن الآليات المساهمة لإعادة الإنتاج الاجتماعي عبر الفضاء.

المحور الأول :الفضاء المادي بوصفه بنية اجتماعية مُنتِجة — هارفي لوفيفر

1.1 **من المخطط الهندسي إلى الفضاء المُنتَج اجتماعياً**: ساد لقرون تصوّر ميكانيكي في الفكر الغربي يعتبر الفضاء وعاءً محايداً ثابتاً .وقد قلب هنري لوفيفر هذا التصور جذرياً في أطروحته المرجعية؛ إذ صاغ منطلقه الجوهري في جملة دقيقة التعبير:*(الفضاء الاجتماعي هو نتاج اجتماعي)*.[i]

وهذه الأطروحة تُحدث قطيعة إبستيمولوجية :الفضاء لم يعد معطىً طبيعياً قابلاً للوصف الجغرافي المحايد، بل صار موضوعَ نقد اجتماعي وسياسي .ويُميّز لوفيفر بين ثلاثة مستويات في إنتاج الفضاء الفضاء المُدرَك (l'espace perçu)المتجلّي في الممارسات اليومية؛ والفضاء المُتصوَّر (l'espace conçu) الذي يُنتجه المخططون وفق منطق أيديولوجي؛ والفضاء المُعاش (l'espace vécu) الذي يجسّد الرموز والذاكرة والمعاني[ii] وهذا التثليث يُتيح قراءة الفضاء بوصفه موقع صراع دائم بين منطق السلطة التي تُخطّط ومنطق الحياة التي تعيش.

1.1.1**الفضاء أداةَ هيمنة**

يُحدّد لوفيفر موقع الفضاء في المنظومة الاجتماعية بدقة؛ فهو في الآن ذاته :*(أداة تفكير وفعل وكذلك وسيلة للسيطرة وبالتالي للهيمنة والقوة)*.[iii]

وبهذا يُصبح كل ترتيب مكاني من توزيع الأحياء إلى تصميم الشوارع حاملاً لأيديولوجيا بعينها تُعيد إنتاج. التفاوت الاجتماعي في صيغة مادية .

2-1 الضغط الزماني-المكاني وأثره على الممارسة :

يُطوّر ديفيد هارفي مفهوم "**الضغط الزماني-المكاني** (Time-Space Compression) "بوصفه أداةً تحليلية لفهم التحوّلات الجذرية التي أحدثها النظام الرأسمالي في علاقة الإنسان بالفضاء والزمن معاً. ويرى هارفي أن المرحلة الراهنة تتميّز بتكثيف غير مسبوق لهذا الضغط، إذ باتت المسافات تنكمش والأزمنة تتسارع بفعل منطق الرأسمال وحركته المتواصلة، مما أفضى إلى اضطراب عميق في الممارسات الاقتصادية والسياسية على حدٍّ سواء ،كما انعكس على مجمل الحياة الثقافية والاجتماعية. وبهذا المعنى، لا يكتفي هارفي بوصف الفضاء كمعطى مادي، بل يكشف عن طابعه الديناميكي المتحوّل باستمرار وفق مقتضيات التراكم الرأسمالي ومتطلباته:

1.2 **الضغط الزماني-المكاني وأثره على الممارسة اليومية**

يُحدّد هارفي مفهوم الضغط الزماني-المكاني في سياق نظري أشمل، إذ يرى أنه يُعبّر عن جملة العمليات التي تُثوّر صفات الفضاء والزمن تثويراً موضوعياً، مما يُجبر الأفراد والجماعات على مراجعة تمثّلاتهم للعالم[iv] وإعادة بنائها من جديد. وتتجلى تداعيات هذا الضغط بصورة مباشرة في نسيج الممارسة اليومية، حيث يجد الأفراد أنفسهم مُقيَّدين بمنطق فضاء لم يُسهموا في تشييده ولم يشاركوا في رسم معالمه. فالعامل الذي يسلك نفس المسار صباح كل يوم، والطالب الملزم بجداول النقل الحضري وإكراهاته، لا يعكسان في الواقع إرادة حرة، بل يستجيبان لضرورات بنيوية يفرضها فضاء مُعاد إنتاجه وفق منطق التراكم الرأسمالي.

1.3 الجغرافيا غير المتكافئة وإعادة إنتاج التفاوت

لا يقف هارفي عند حدود وصف التوزيع غير المتكافئ للموارد عبر الفضاء، بل يتجاوز ذلك إلتحليل الآليات الخفية التي يُعيد بها هذا التوزيع إنتاج نفسه عبر الأجيال المتعاقبة في ما يُسمّيه "الجغرافيا غير المتكافئة للتنمية"[v]. وتتجلى هذه الآلية في دوامة مادية-رمزية مُحكمة الحلقات: فالحي المهمَّش يُنتج أفراداً تُشكّل ممارساتهم اليومية هوياتهم وتوقعاتهم، وهذه الهويات بدورها تُقيّد حركيتهم الاجتماعية الصاعدة، وضعف هذه الحركية يُعيد إنتاج تهميش الحي ويُرسّخه. والطفل الناشئ في فضاء مهمَّش لا يُحرم من الخدمات الجيدة وحسب، بل يتشرّب عبر مساره التنشيئي ممارساتٍ وتوقعاتٍ تتطابق مع الموقع الذي رسمه له الفضاء الاجتماعي مسبقاً. وما يبدو في ظاهره استجابةً طبيعية لمعطيات الواقع، ليس في جوهره سوى نتاج آلية إنتاج اجتماعي صارمة ، مُحوِّلةً البنية الموضوعية إلى مصير ذاتي متخيَّل .

المحور الثاني: السلطة المُقيمة في الفضاء فوكو والممارسات الانضباطية

2.1 الفضاء الانضباطي وإنتاج الجسد الطيّع

لا يُعامل ميشيل فوكو الفضاءَ باعتباره مجرد ظرف خارجي تُمارَس فيه السلطة أو من خلاله، بل يجعله وسيلتها الأساسية وركيزتها البنيوية التي لا غنى عنها. ففي مؤلَّفه الرائد "**المراقبة والعقاب**"، يُبيّن فوكو بدقة تحليلية بالغة كيف يعمل الفضاء الانضباطي على إنتاج نمط معين من الجسد البشري، جسدٍ يُعاد تشكيله وتطويعه عبر ترتيبات مكانية محكمة تُحوّله إلى أداة خاضعة ومُنتِجة في آنٍ معاً. فالانضباط في هذا السياق لا يكتفي بفرض القواعد من الخارج، بل ينفذ إلى الجسد ذاته ليُرسّخ فيه أنماط الحركة والإيقاع والاستجابة، مُنتِجاً بذلك ما يُسمّيه فوكو الجسدَ الطيّع، أي الجسد القابل للتوجيه والتشكيل والاستثمار وفق مقتضيات النظام السائد.[vi].

يستعير فوكو نموذج البانوبتيكون ليجعله نموذجاً شاملاً لآلية السلطة الحديثة. الأثر الجوهري لهذا الفضاء المُتخيَّل، والمُطبَّق في الواقع، هو إحداث لدى المحتجز حالة وعي دائم ومستمر بمرئيته بما يضمن الاشتغال التلقائي للسلطة[vii]:

وما يجعل هذا المفهوم بالغ الدلالة هو قدرته التحليلية على فهم الفضاء العام المعاصر: كاميرات المراقبة، ومقاعد الحدائق المُصمَّمة لمنع الاستلقاء، وتوزيع الإنارة المتفاوت بين الأحياء — كلها تُجسّد ما أسماه فوكو "المعمار السياسي"[viii] ، أي ذلك الفضاء الذي يمارس السلطة عبر شكله وتصميمه لا عبر ممثليه البشريين.

2.3 الهيتيروتوبيا: أماكن الاستثناء الاجتماعي

يُضيف فوكو مفهوم الهيتيروتوبيا (Hétérotopie) في محاضرته (1967) «Des espaces autres» وهي أماكن حقيقية تختلف جذرياً عن غيرها؛ إذ يرى أن في كل مجتمع: أماكن حقيقية فعلية مرسومة في مؤسسة المجتمع ذاتها، تُمثّل أنواعاً من المواضع المضادة، أنواعاً من الفضاءات الطوباوية المُنجزة فعلياً، والتي تُمثَّل فيها جميع المواضع الحقيقية ضمن الثقافة وتُطعَن فيها وتُعكَس في الآن ذاته.

والهيتيروتوبيا تمتلك قدرة خاصة: إنها تجعل عدة فضاءات متنافرة تبدو متجاورة في مكان واحد[ix] وهذا ما يجعلها كاشفةً لما يُخفيه المجتمع أو يُقدّسه. وتُحدّد الهيتيروتوبيات حدود الممارسة اليومية العادية من خلال تعريفها لما هو مقبول وما هو مُقصى.

2.4**الجسد اليومي بين الضبط والمقاومة**

يُظهر فوكو أن الفضاء الانضباطي لا يكتفي بتوجيه حركة الأجساد بل يُعيد تشكيل الجسد من الداخل عبر (تقنيات الجسد) الضابطة للأوضاع والإيماءات والإيقاعات الزمنية [x]. والجسد المُشكَّل فضائياً هو الوسيط الأساسي بين بنية الفضاء وإعادة إنتاج الممارسة اليومية. غير أن هذا لا يعني الخضوع المطلق؛ إذ تظل إمكانية المقاومة قائمةً في ثنايا النظام ذاته.

المحور الثالث: اللامكان وأزمة الممارسة اليومية / مارك أوجيه

3.1 **الحداثة الفائقة:** يُشخّص مارك أوجيه وضع عصرنا تحت مسمّى الحداثة الفائقة (surmodernité) ، ويرى أنها تتميّز بثلاثة فوائض متشابكة: فائض الزمن (إذ يُنتج التاريخ من الأحداث أكثر مما يستطيع أي إطار تأويلي احتواءه)، وفائض المكان (إذ تتضاعف الفضاءات بوتيرة تفوق قدرتنا على استيعابها)، وفائض الفردانية (الذي يُقدّم الذات بمعزل عن الانتماء الجمعي) .وهذه الفوائض الثلاثة تُنتج وضعاً إنسانياً تُعاد فيه كتابة العلاقة بين الفرد والمكان والممارسة.[xi]

3.2**المكان الأنثروبولوجي مقابل اللامكان** :يبني أوجيه تحليله على تمييز دقيق بين المكان الأنثروبولوجي واللامكان، مُصاغاً في تعريف إجرائي: إذا كان يمكن تعريف المكان بكونه هوياتياً وعلائقياً وتاريخياً، فإن الفضاء الذي لا يمكن تعريفه لا بكونه هوياتياً ولا علائقياً ولا تاريخياً سيُعرّف باللامكان.[xii]

اللامكان هو فضاء العبور والاستهلاك والمرور لا فضاء الإقامة والتجذّر. وتشمل اللاأماكن: الطرق السريعة والمفترقات والمحطات والمطارات ووسائل النقل ذاتها [xiii]. وهذه الفضاءات مُصمَّمة للاستخدام المؤقت، تُنتج نمطاً مخصوصاً من الممارسة يتسم بالعزلة والتعاقدية الباردة.

3.3 **عقد اللامكان وتنميط الممارسة اليومية:** يُعد مفهوم عقد اللامكان من المفاهيم المركزية في البناء النظري لمارك أوجيه، إذ يفسر الكيفية التي تُدار بها الحياة اليومية داخل الفضاءات العابرة التي تميز الحداثة المفرطة. "اللامكان لا يمتلك خصائص فيزيائية، وإنما هو عبارة عن بيئات غير معروفة ثقافياً "[xiv]. و لا يقوم على التفاعل الاجتماعي المباشر بين الأفراد كما هو الحال في الأمكنة التقليدية، بل يقوم على علاقة تعاقدية غير شخصية بين الفرد والمنظومة التنظيمية التي تُدير الفضاء. ويظهر هذا العقد من خلال شبكة واسعة من التعليمات والإشارات والرموز والقواعد التقنية التي توجه سلوك الأفراد وتحدد مساراتهم بدقة.

ففي المطارات ومحطات القطارات والطرق السريعة والمراكز التجارية الكبرى، لا يحتاج الفرد إلى معرفة الآخرين أو التفاعل معهم من أجل أداء أدواره اليومية؛ إذ تكفيه الإشارات الإلكترونية، ولوحات التوجيه، والبطاقات

المغنطة، وأنظمة المراقبة الرقمية. وبهذا المعنى يصبح النظام التقني بديلاً عن العلاقات الاجتماعية التقليدية، وتتحول الممارسة اليومية من فعل اجتماعي قائم على التفاوض والتفاعل إلى سلسلة من الاستجابات المنظمة مسبقاً.

ومن منظور سوسيولوجي، يُمثل عقد اللامكان أحد تجليات **العقلنة المتقدمة** التي تحدث عنها Max Weber، حيث تخضع الممارسات اليومية إلى معايير موحدة وإجراءات بيروقراطية دقيقة تقلص هامش المبادرة الفردية. فالعابر داخل اللامكان لا يُطلب منه أن يبدع أو يفاوض أو يؤسس علاقات، بل أن يمتثل للتعليمات المحددة سلفاً. وهكذا تتجسد سلطة التنظيم الحديثة في صورة غير مرئية، تُمارس عبر اللافتات والشاشات والأنظمة الرقمية بدلاً من الأوامر المباشرة.

كما يكشف مفهوم عقد اللامكان عن تحول عميق في طبيعة الهوية الاجتماعية. ففي الأمكنة التقليدية كان الفرد يُعرَّف من خلال انتماءاته العائلية أو المهنية أو الثقافية، أما في اللامكان فإنه يُختزل إلى سلسلة من البيانات والرموز الإدارية: رقم جواز سفر، بطاقة صعود، رمز استجابة سريع(QR Code) ، أو رقم حساب مصرفي. وهنا تنتقل الهوية من بعدها الاجتماعي والثقافي إلى بعدها الإجرائي والتقني، لتصبح هوية قابلة للقراءة الآلية أكثر مما هي هوية قابلة للتعرف الاجتماعي.

غير أن اللامكان[xv]، رغم ادعائه المساواة الشكلية بين جميع العابرين، لا يؤدي إلى محو التفاوتات الاجتماعية بصورة كاملة. بل إنه يعيد إنتاجها في أشكال جديدة وأكثر خفاءً. فإمكانية العبور والتنقل والاستهلاك ترتبط بامتلاك الوثائق القانونية ورأس المال الاقتصادي والثقافي اللازمين. ولذلك ينشأ نوع جديد من التراتب الاجتماعي يتمثل في التمييز بين من يمتلك حق الحركة ومن يُحرم منه، وبين من يستطيع الولوج إلى شبكات العبور العالمية ومن يبقى خارجها. ومن ثم فإن اللامكان لا يُلغي الهيمنة الاجتماعية، بل يعيد تنظيمها وفق منطق التدفقات والتنقلات الذي يميز العولمة المعاصرة.

3.4 **وحدة العابر في اللامكان** :تمثل وحدة العابر إحدى السمات الأساسية التي تميز فضاءات اللامكان في المجتمعات المعاصرة. فمع اتساع فضاءات العبور والتنقل والاستهلاك، لم يعد الاجتماع الفيزيقي بين الأفراد كافياً لإنتاج علاقات اجتماعية مستقرة أو هويات جماعية متماسكة. وفي هذا السياق يشير مارك أوجيه إلى أن التحولات التي يشهدها العالم المعاصر جعلت الهوية والعلاقة تخضعان لإعادة تشكيل مستمرة، إذ إن "الهوية والعلاقة هما في قلب كل الإجراءات المكانية المتبدلة"[xvi]

فاللامكان يجمع أعداداً كبيرة من الأفراد داخل فضاء واحد، لكنه لا ينتج بالضرورة جماعة اجتماعية بالمعنى السوسيولوجي للكلمة. فالعابرون في المطارات ومحطات النقل والمراكز التجارية يشتركون في الحضور المكاني المؤقت دون أن تجمعهم ذاكرة مشتركة أو روابط اجتماعية دائمة. ويعزز هذا الواقع ما وصفه النص بانتقال العالم من "التقارب وسهولة الاتصال إلى عالم التباعد الاجتماعي"[xvii]، حيث أصبح الأفراد أكثر اتصالاً تقنياً وأقل اندماجاً اجتماعياً.

وتزداد هذه المفارقة وضوحاً مع انتشار أنماط التواصل الرقمي التي أعادت تشكيل العلاقات الإنسانية. فقد أصبحت الشبكات الاجتماعية تؤدي وظائف الاتصال السريع، لكنها لا تعوض بالضرورة العلاقات الاجتماعية العميقة، إذ أن الشبكات تحل مكان العلاقات، وتعبر عن "فك الارتباط" بكل ما هو إنساني . وبهذا المعنى يتولد نمط من التشابه السلوكي بين الأفراد يقوم على المرور المشترك داخل الفضاءات نفسها واستخدام الوسائط التقنية ذاتها، دون أن يقود ذلك إلى تضامن اجتماعي فعلي أو شعور متبادل بالانتماء.

كما أن بنية اللامكان نفسها تسهم في إنتاج هذه الوحدة؛ فهي فضاءات مصممة لتسهيل الحركة والتدفقات السريعة أكثر من كونها أماكن لبناء الروابط الاجتماعية. لذلك تغدو العلاقات عابرة ومؤقتة، ويصبح القرب الفيزيقي منفصلاً عن القرب الاجتماعي. وفي هذه الحالة يتضح أن قرب المسافة اليوم لا يعني إطلاقاً القرب الوجداني، إنما هو القرب الافتراضي[xviii].

ومن منظور أوسع، تعكس وحدة العابر تحولاً بنيوياً في أسس الاندماج الاجتماعي داخل المجتمعات المعاصرة. فكلما توسعت فضاءات اللامكان والشبكات الرقمية تراجعت أهمية الأمكنة التاريخية الحاملة للذاكرة والانتماء. لذلك يصبح اللامكان مؤشراً على الانتقال من مجتمع العلاقات المتجذرة مكانياً إلى مجتمع الشبكات والتدفقات المتحركة. وفي هذا الإطار يتؤكد أن "اللامكان لا يمتلك خصائص فيزيائية، وإنما هو عبارة عن بيئات غير معروفة ثقافياً"[xix] ، الأمر الذي يفسر محدودية قدرته على إنتاج هوية جمعية مستقرة أو ذاكرة اجتماعية مشتركة.

وعليه، فإن خطورة اللامكان لا تكمن فقط في إضعاف العلاقات الاجتماعية التقليدية، بل في إعادة صياغة معنى الانتماء ذاته، حيث تتراجع الروابط المستقرة المرتبطة بالمكان لتحل محلها أنماط من الاتصال السريع والعابر، فتغدو الهوية أكثر سيولة والعلاقات أكثر هشاشة في سياق الحداثة المعاصرة.

المحور الرابع: آليات إعادة إنتاج الممارسات اليومية

4.1 **الأطروحة المشتركة: لا حياد للفضاء :** تمثل مقاربات ديفيد هارفي وميشيل فوكو ومارك أوجيه محطات نظرية أساسية في دراسة الفضاء داخل العلوم الاجتماعية المعاصرة، ورغم اختلاف منطلقاتها المعرفية فإنها تلتقي عند رفض التصور التقليدي الذي ينظر إلى الفضاء باعتباره إطاراً محايداً أو وعاءً طبيعياً مستقلاً عن العلاقات الاجتماعية. فالفضاء، وفق هذه المقاربات النقدية، لا يشكل مجرد خلفية للأفعال الإنسانية، بل يساهم بصورة مباشرة في إنتاج السلوك الاجتماعي وإعادة تشكيل أنماط السلطة والهوية والممارسة اليومية. وقد شكل هذا التحول أحد أهم المنعطافات الإبستيمولوجية في السوسيولوجيا المعاصرة، إذ انتقل الاهتمام من دراسة الممارسات التي تجري داخل الفضاء إلى تحليل الكيفية التي يسهم بها الفضاء ذاته في إنتاج تلك الممارسات. فتنظيم المدينة، وتوزيع المؤسسات، وتصميم شبكات التنقل والاتصال، كلها عناصر تؤثر في أشكال التفاعل الاجتماعي وتحدد إمكانات المشاركة والوصول إلى الموارد.

ويؤكد ديفيد هارفي "إن الفضاء الاجتماعي ليس معطىً ثابتًا أو محايدًا، بل هو نتاج تاريخي واجتماعي. ولذا فإن الفضاء، في نظر لوفيفر، ليس شيئًا قائمًا بذاته، وإنما هو نتيجة مباشرة للبنيات المادية، ولأنماط الإنتاج السائدة

في كل مرحلة تاريخية. ومن هنا تبرز ضرورة التأكيد على أن الفضاء يُنتَج ويُعاد تشكيله من خلال علاقات القوة والهيمنة. وأكثر من ذلك، فإنه يعكس ويكرّس في الوقت نفسه أشكال السيطرة الاقتصادية والسياسية للرأسمالية" [xx].

أما ميشيل فوكو فينظر إلى الفضاء باعتباره تقنية للسلطة والانضباط. فالسلطة الحديثة لا تمارس تأثيرها عبر القوانين والعقوبات فقط، بل من خلال تنظيم الفضاءات والمؤسسات وآليات المراقبة[xxi] والتصنيف. وهكذا يصبح توزيع الأفراد داخل المدرسة أو المستشفى أو السجن جزءاً من عملية إنتاج الطاعة وضبط السلوك وإعادة تشكيل الذوات الاجتماعية.

وفي المقابل، يكشف مارك أوجيه عن بعد آخر للفضاء المعاصر يتمثل في ظاهرة اللامكان، حيث تتراجع العلاقات الاجتماعية والذاكرة الجماعية أمام منطق التدفقات والحركة والاستهلاك. فالإنسان المعاصر يعيش بصورة متزايدة داخل فضاءات العبور التي تفتقر إلى الهوية والاستقرار، الأمر الذي ينعكس على طبيعة الانتماء والعلاقات الاجتماعية[xxii].

وتجد هذه الرؤية صداها في النقاشات المعاصرة حول الفضاء الافتراضي، حيث تشير بعض الدراسات إلى أن التحولات التكنولوجية لا تقتصر على توفير أدوات جديدة للتواصل، بل تؤدي إلى إعادة تشكيل أنماط التفاعل الاجتماعي نفسها. " لقد أضحت التكنولوجيا واقعًا بديلًا أو موازيًا للواقع الحقيقي بما تتضمنه من نظام للعلاقات الاجتماعية إلى الشبكات العابرة بوصفها نظامًا من الممارسات الجديدة. فعلى سبيل المثال، فإن الاستماع إلى الأغاني مع وضع السماعات لدى اليافعين والشباب قد يشكل انسحابًا طوعيًا نحو عزلة عن المكان الواقعي لصالح مكان متخيل، مما يخلق أزمة في هذا الواقع البيني الذي يتشكل حاليًا. [xxiii]"، كما يشير إلى أن الإنترنت "خلق شبكة ومساحة تمكننا من فهم وتخيل تشكيل مجال عام شامل ذاتي النمو"[xxiv]. ويعكس هذا الطرح فكرة مركزية مفادها أن الفضاء، سواء كان مادياً أو رقمياً، ليس محايداً بل يمتلك قدرة على توجيه السلوك الاجتماعي وإعادة تنظيمه.

كما يبرز البعد البنائي للفضاء في التحولات التي تعرفها العلاقات الاجتماعية المعاصرة، حيث يرى المقال أن الفضاءات الرقمية أوجدت أشكالاً جديدة من التفاعل والحوار العام، إذ "يخلق هذا الوضع شكلاً جديداً من التفاعل والحوار العام"[xxv]. غير أن هذه التحولات لا تلغي بالكامل علاقات الهيمنة أو التفاوت الاجتماعي، بل تعيد إنتاجها ضمن أشكال جديدة ترتبط بإمكانات الوصول إلى التكنولوجيا والموارد والمعرفة.

وعليه، فإن القاسم المشترك بين هارفي وفوكو وأوجيه يتمثل في اعتبار الفضاء عنصراً فاعلاً في إنتاج النظام الاجتماعي وإعادة إنتاجه. فالفضاء لا يعكس العلاقات الاجتماعية فحسب، بل يشارك في تشكيلها وتوجيهها وإعادة تنظيمها بصورة مستمرة. ومن ثم فإن فهم الممارسات اليومية يقتضي دراسة البنى المكانية التي تنتج تلك الممارسات بقدر ما يقتضي دراسة الفاعلين الاجتماعيين أنفسهم، لأن الفضاء يشكل أحد أهم الآليات التي تتقاطع داخلها السلطة والاقتصاد والهوية في المجتمعات المعاصرة.

4..2 تعدد الزوايا وتكامل الإطار

تتمايز المقاربات الثلاث في الزاوية التحليلية التي تنطلق منها لمقاربة الفضاء، غير أن هذا التمايز لا يُفضي إلى تناقض بل إلى تكامل منهجي ثري[xxvi].

حيث ينطلق ديفيد هارفي من الجغرافيا الاجتماعية النقدية ليُبيّن أن الفضاء ليس سياقاً محايداً للنشاط الاقتصادي، بل هو نتاج هذا النشاط وأداته في آنٍ معاً. فالتوزيع غير المتكافئ للموارد والخدمات عبر الفضاء الحضري ليس أمراً عارضاً أو تقنياً، بل هو تجسيد مادي لمنطق التراكم الرأسمالي الذي يُعيد إنتاج التفاوتات الاجتماعية عبر الأجيال. وما يُقدّمه هارفي هو قراءة اقتصادية-سياسية للفضاء تكشف عن الطبقية المضمَّنة في الجغرافيا الحضرية ذاتها، حيث يغدو الحي المهمَّش تعبيراً مكانياً عن إخفاق منظومة التوزيع الاجتماعي، لا مجرد ظاهرة عمرانية قائمة بذاتها[xxvii].

من زاوية مغايرة تماماً، يكشف ميشيل فوكو عن السلطة المُقيمة في بنية الفضاء ذاتها، إذ تتحول الترتيبات المعمارية والمجالية إلى أدوات رقابة وانضباط تعمل بصمت ودون إكراه مباشر. فالفضاء الانضباطي عند فوكو لا يكتفي بتوجيه حركة الأجساد، بل يُعيد تشكيلها من الداخل عبر ما أسماه "تقنيات الجسد". وما يُضيفه فوكو إلى هارفي هو البعد السياسي الانضباطي الذي يتجاوز التفسير الاقتصادي الخالص، إذ يُبيّن أن السلطة لا تُمارَس فحسب عبر التوزيع غير المتكافئ للموارد، بل عبر تشكيل الجسد والإدراك والسلوك من خلال الفضاء ذاته.

العلاقات الاجتماعية محمّلة بالمعاني والدلالات، وتتضمن توقعات متبادلة بين أطراف التفاعل الاجتماعي. كما تتشكل هذه العلاقات داخل سياقات طقوسية تحدد طبيعة كل موقف اجتماعي بوصفه بيئة مكانية متكاملة، حيث تعمل هذه الطقوس على تنظيم السلوك من خلال مجموعة من التوقعات والإجراءات المرتبطة بكيفية الاستجابة لها[xxviii].

وعليه، فإن العلاقة بين الإنسان والمكان لا تقتصر على بعدها الوظيفي أو الشكلي، بل تتجاوز ذلك إلى أبعاد ثقافية وفكرية ترتبط بالماضي وتؤسس للمستقبل، وتنتج نوعًا من التآلف الديناميكي المتجدد الناتج عن تداخل الأبعاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وذاكرتها التاريخية.

ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن الإطار التحليلي الجامع بين المقاربات الثلاث يُتيح قراءةً متعددة المستويات للفضاء الاجتماعي؛ مستوىً اقتصادياً-مادياً يكشف عن آليات التفاوت في التوزيع، ومستوىً سياسياً-انضباطياً يُعرّي آليات السلطة المضمَّنة في التنظيم المكاني، ومستوىً أنثروبولوجياً-رمزياً يرصد أزمة المعنى والهوية في الفضاءات المعاصرة. وهذا التركيب التحليلي هو ما يجعل من هذا الإطار المرجعي أداةً ناجعة لفهم تعقيدات الفضاء الحضري في سياقاته المتشابكة،

لفهم الكيفية التي يؤثر بها الفضاء المادي في تشكيل الممارسات اليومية، يصبح من الضروري استحضار مفهوم الهابيتوس لدى Pierre Bourdieu، باعتباره أحد المفاهيم المركزية في تفسير العلاقة بين البنى الاجتماعية والسلوك اليومي. ويعرّف بورديو الهابيتوس بأنه[xxix] نظام من الاستعدادات الدائمة والقابلة للنقل، وبنى مُشكَّلة

مسبقاً ومهيّأة للاشتغال كبنى مُشكِّلة، أي باعتبارها مبادئ مولِّدة ومنظِّمة للممارسات والتمثلات، يمكن أن تتكيف موضوعياً مع غاياتها دون أن تفترض وعياً صريحاً بالأهداف أو تحكماً مباشراً في الوسائل الضرورية لتحقيقها[xxx]

ومن هذا المنطلق، لا يُنظر إلى الممارسة اليومية باعتبارها أفعالاً فردية معزولة، بل بوصفها نتاجاً لتراكمات اجتماعية وثقافية تتجسد داخل الأفراد عبر التنشئة والخبرة الحياتية. فالفضاء الاجتماعي والمادي يسهم في تشكيل أنماط الإدراك والتصرف والتفاعل، ويغدو الهابيتوس [xxxi]آليةً تربط بين البنية الاجتماعية من جهة، والممارسة اليومية من جهة أخرى، عبر إعادة إنتاج القيم والعادات والتمثلات داخل الحياة اليومية.

لا يمكن اختزال الممارسة اليومية في الخضوع السلبي أو الامتثال الميكانيكي للبنيات الاجتماعية والمكانية، إذ يقدّم Michel de Certeauفي كتابه L'Invention du quotidien تصوراً للممارسة بوصفها مجالاً للمناورة والإبداع اليومي. ويعرّف التكتيك بقوله: أُسمّي "تكتيكاً" ذلك الفعل المحسوب الذي يتحدد بغياب موقع خاص به؛ إذ لا يوفّر له أيّ تحديد خارجي شرط الاستقلالية. فالتكتيك لا يمتلك مكاناً خاصاً به سوى مكان الآخر.[xxxii]

وفي هذا الإطار، يتجلّى التكتيك في تلك الممارسات اليومية التي يعيد الأفراد من خلالها توظيف الفضاء بطرق غير متوقعة أو غير منصوص عليها ضمن التنظيم الرسمي للمكان؛ كاختيار مسارات غير مرسومة داخل المدينة، أو إعادة استعمال الفضاءات العامة بوظائف مغايرة لما خُصصت له، أو إنتاج أشكال رمزية من التفاعل تتسلل داخل النظام المكاني القائم دون الاصطدام المباشر به. ومن ثمّ، فإن ما يسميه دو سيرتو «حيل الضعفاء» لا يلغي منطق السيطرة المكانية، لكنه يكشف في المقابل عن وجود توتر دائم بين آليات الضبط الاجتماعي وإمكانات الإبداع والمقاومة اليومية[xxxiii].

الخاتمة

وفي خلاصة هذا المقال النظري التحليلي نعرض مستويين من الترابط يعكسان البعد المركّب للعلاقة بين الفضاء والممارسة الاجتماعية.

على المستوى النظري، أكدت الدراسة أن الفضاء المادي ليس مجرد إطار محايد تُمارَس داخله الأفعال الاجتماعية، بل هو عنصر بنيوي فاعل في إعادة إنتاج الممارسة اليومية وتوجيهها. وقد أظهر التحليل المقارن بين مقاربات David Harveyو Michel Foucaultو Marc Augéأن إنتاج الفضاء يتم عبر ثلاث ديناميات أساسية: منطق الإنتاج الرأسمالي الذي يعيد تنظيم المجال وفق آليات التراكم، وآليات الضبط الانضباطي التي تُشكّل السلوك والأجساد داخل شبكات السلطة، ثم دينامية اللامكان التي تُضعف البعد الرمزي والهوياتي للمجال وتُعيد تشكيل التجربة المعيشية في فضاءات الظرفية وعابرة.

و اما على المستوى المنهجي، أبرزت الدراسة أهمية اعتماد مقاربة تركيبية متعددة التخصصات، تتقاطع فيها الجغرافيا الاجتماعية مع علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الحضرية، من أجل فهم أكثر دقة لتداخل البنى المكانية مع أنماط الفعل الاجتماعي. وفي هذا الإطار، ساهم مفهوم الهابيتوس لدى Pierre Bourdieu في تفسير آلية

تجسّد الفضاء داخل الممارسة اليومية عبر التعود والتطبع غير الواعي، اما بينما مكّن مفهوم التكتيك لدى Michel de Certeauمن إبراز أشكال الفعل اليومي بوصفها ممارسات مرنة وإبداعية تُعيد توظيف الفضاء القائم دون مواجهته مباشرة.

المـــــراجـــــع

الكتب:

1. Bourdieu, Pierre. Le Sens pratique. Paris: Les Éditions de Minuit, 1980.
2. Foucault, Michel. Surveiller et punir. Naissance de la prison. Paris: Gallimard, 1975.
3. Harvey, David. The Condition of Postmodernity: An Enquiry into the Origins of Cultural Change. Oxford: Basil Blackwell, 1989.
4. Lefebvre, Henri. La Production de l'espace. Paris: Éditions Anthropos, 1974.
5. Augé, Marc. Non-lieux. Introduction à une anthropologie de la surmodernité. Paris: Seuil, 1992.
6. Certeau, Michel de. L'Invention du quotidien, t. 1 : Arts de faire. Paris: Union Générale d'Éditions, coll. «10/18», 1980.

المقالات العلمية

1. لعريني، صلاح الدين. «مفهوم الهابيتوس عند بيير بورديو .«*مجلة العلوم الاجتماعية*، المجلد 8، العدد 4، نوفمبر 2014.
2. سويلمي، منى زاهد. «المكان كأداة للوصل والفصل: تحليل ثقافي في جدلية التشكيل المعاصر للحياة الاجتماعية .«*مجلة أنثروبولوجيا*، المجلد 8، العدد 1، 2022.
3. بن بوجليدة، عمر. «الفضاء ساحة للنضال الاجتماعي: الطبقات المهمشة وإعادة تشكيل الفضاء لدى ديفيد هارفي – جغرافيات المقاومة .«*مجلة أبونيوس*، المجلد 35، العدد 3، جانفي 2024.
4. عامر إيمان وصافي الطاهر. «تحليلية السلطة ومظاهرها عند ميشيل فوكو .«*مجلة البحوث والدراسات الإنسانية*، المجلد 17، العدد 01، 2023.
5. أفروجن، كهينة. «الواقع التنظيري لأزمة التلقي في عصر الإعلام الإلكتروني، دواعي التحول .«*مجلة تاريخ العلوم*، العدد 10، 2017.

المقالات الإلكترونية

1. كعدي، جورج. «عن مارك أوجيه في غيابه: المدينة واللا مكان أنثروبولوجيًا .«*ضفة ثالثة*، 17أغسطس 2023. تاريخ الاطلاع: 13 يونيو 2026، الساعة 15:45.

*"L'espace (social) est un produit (social)"

1 Henri Lefebvre, La Production de l'espace (Paris : Éditions Anthropos, 1974), p. 35

*** instrument de pensée et d'action, mais aussi moyen de contrôle, et donc de domination, de puissance "

2 Ibid. pp. 48-49.

[iii]Lefebvre, La Production de l'espace, op. cit., pp. 26-28.

[2] Ibid., p. 240.

[v] Harvey, The Condition of Postmodernity, op. cit., p. 293.

[vi] Foucault, Michel, *Surveiller et punir. Naissance de la prison*, Paris, Gallimard, 1975 p 193.

*" La discipline fabrique ainsi des corps soumis et exercés, des corps ' dociles"

[vii]Ibid., pp. 234-235.

**" induire chez le détenu un état conscient et permanent de visibilité qui assure le fonctionnement automatique du pouvoir "

[viii]Foucault, Surveiller et Punir, op. cit., p. 199

[ix] Ibid., p. 47

[x] Foucault, Michel, *Surveiller et punir. Naissance de la prison*, Paris, Gallimard, 1975, p. 201

[xi]Augé, Marc, *Non-lieux. Introduction à une anthropologie de la surmodernité*, Paris, Seuil, 1992, pp. 36-42

[xii] Ibid., p. 100.

*" Si un lieu peut se définir comme identitaire, relationnel et historique, un espace qui ne peut se définir ni comme identitaire, ni comme relationnel, ni comme historique définira un non-lieu".

[xiii] Ibid., p. 101

[xiv] سويلمي منى زاهد. 2022 .*المكان كأداة للوصل والفصل: تحليل ثقافي في جدلية التشكيل المعاصر للحياة الاجتماعية* .مجلة أنثروبولوجيا، المجلد 8، العدد 1، ص 54.

[xv] المرجع نفسه، ص 54.

[xvi] المرجع نفسه، ص55.

[xvii] المرجع نفسه، ص 55.

[xviii] كعدي، جورج. "عن مارك أوجيه في غيابه: المدينة واللا مكان أنثروبولوجيًا ."*ضفة ثالثة*، 17أغسطس 2023. تاريخ الاطلاع: 12 يونيو 2026، الساعة 15:45.

[xix] سويلمي منى زاهد.مرجع سابق .ص56.

[xx] د. عمر بن بوجليدة، «الفضاء ساحة للنضال الاجتماعي: الطبقات المهمشة وإعادة تشكيل الفضاء لدى ديفيد هارفي – جغرافيات المقاومة«، *مجلة أبونيوس*، المجلد 35، العدد 3، جانفي 2024، ص. 11 .

[xxi] عامر إيمان، وصافي الطاهر، «تحليلية السلطة ومظاهرها عند ميشيل فوكو«، *مجلة البحوث والدراسات الإنسانية*، المجلد 17، العدد 01، 2023، ص.15.

[xxii] جورج كعدي، «عن مارك أوجيه في غيابه: المدينة واللا مكان أنثروبولوجيًا«، *ضفة ثالثة*، 17أغسطس 2023، متاح على :ضفة ثالثة، تاريخ ووقت الاطلاع: 13 يونيو 2026،

[xxiii] سويلمي منى زاهد مرجع سابق ص 60.

[xxiv] المرجع نفسه، ص 60.

[xxv] المرجع نفسه، ص 61.

[xxvi] د. عمر بن بوجليدة.مرجع سابق ص7.

[xxvii] د. عمر بن بوجليدة . مرجع سابق ص 8.

[xxviii] سويلمي منى زاهد مرجع سابق ص54

[xxix] صلاح الدين لعريني، «مفهوم الهابيتوس عند بيير بورديو«، *مجلة العلوم الاجتماعية*، المجلد 8، العدد 4، نوفمبر 2014، ص. 65..

[xxx] Pierre Bourdieu, Le Sens pratique (Paris : Les Éditions de Minuit, 1980), pp. 88-89 .

*" un système de dispositions durables et transposables, structures structurées prédisposées à fonctionner comme structures structurantes, c'est-à-dire en tant que principes générateurs et *"organisateurs de pratiques et de représentations qui peuvent être objectivement adaptées à leur but sans supposer la visée consciente des fins et la maîtrise expresse des opérations nécessaires pour les atteindre "

[xxxi] Bourdieu, Le Sens pratique, op. cit., pp. 110-114

[xxxii]Michel de Certeau, L'Invention du quotidien, t. 1 : Arts de faire (Paris : Union Générale d'Éditions, coll. « 10/18 », 1980), p. XLVI.

**" J'appelle “tactique” l'action calculée qui est déterminée par l'absence d'un propre. Alors aucune délimitation de l'extériorité ne lui fournit la condition d'une autonomie. La tactique n'a pour lieu que celui de l'autre "

[xxxiii] افروجن كهينة. (2017). الواقع التنظيري لأزمة التلقي في عصر الإعلام الإلكتروني، دواعي التحول .*مجلة تاريخ العلوم*، (10)، الصفحات 732-739.